مراسيم العزاء في دار الخلافة في العصر العباسي الأخير (٥٥٠-٦٥٦هـ\١١٥٥- ١٢٥٨م)"

محمد عبد الله القدحات*

ملخــص

تمثل مراسيم العزاء جانبًا مهمًا من الرسوم التي حرصت مؤسسة الخلافة العباسيةعلى إظهارها والاهتمام بها. فكان إغلاق أبواب دار الخلافة بمثابة إعلان لوفاة الخليفة وبداية الاستعداد لمراسيم الدفن والعزاء. وبعد إعلان الخبر على الملأ يتجهز رجالات الدولة وهم يرتدون البياض لباس العزاء الرسمي، ويتوجهون لدار الخلافة للمشاركة في الصلاة وتشييع جثمان الخليفة المُتوفى إلى مقابر الخلفاء بالرصافة. ثم العودة إلى دار الوزارة والجلوس للعزاء بالخليفة المتوفى مدة ثلاثة أيام. يتم خلال أيام العزاء الثلاثة البيعة للخليفة الجديد، والذييرسل بدوره في ثالث ايام العزاء مطالعة إلى الوزير، يأمره ورجال دولته بالقيام من مجلس العزاء ومباشرة أعمالهم.

الكلمات الدالة: مراسيم، العزاء، ملابس العزاء، مقابر الخلفاء.

المقدمة

امتازت هذه المدة من عمر الخلافة العباسية– والتي اصطُلِحَ على تسميتها بالعصر العباسي الأخير– بسمات عدة ميزتها عن الحقب السابقة من عمرها، ونعني بها حقبتي النفوذ البويهي والسلجوقي[1]. ومن أهم تلك المميزات استعادة مؤسسة الخلافة العباسية للكثير من الصلاحيات التي كان قد سلبها آل بويه والسلاجقة قرنين من الزمن تقريبًا.

وكان الخليفة المسترشد بالله أول (٥١٢-٥٢٩هـ/١١١٨-١١٣٥م) خليفة طبّق عمليًا سياسة تهدف إلى تحرير مؤسسة الخلافة من سيطرة السلاجقة، وترجمة الحقوق النظرية لأسرته إلى واقع عملي. ويمكن الحكم على أفكاره من الخطبة التي ألقاها بعد صلاة الجمعة قبل أن يخوض معركته مع السلطان السلجوقي محمود سنة٥٢٠هـ\١١٢٦جاء فيها:" فوضنا أمورنا لآل سلجوق فبغوا علينا.{ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ[2]}[3]

يعد عهد الخليفة المقتفي ٥٣٠-٥٥٥هـ\ ١١٣٦- ١١٦٠م البداية الحقيقية لاستقلال مؤسسة

---

* قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة السلطان قابوس. تاريخ استلام البحث ٢٠١٤/٩/٢١م، وتاريخ قبوله للنشر ٢٠١٥/١/٢٢م.

١. امتدت السيطرة البويهية ومن ثم السلجوقية على الخلافة العباسية من ٣٣٤-٥٥٠هـ/ ٩٤٦-١١٥٥م.

٢. سورة الحديد، آية ١٦.

٣. أمير حسن صديقي، الخلافة والملكية في إيران في العصر الوسيط، ترجمة إحسان الثامري، دار الجمل، كولونيا- ألمانيا، ٢٠٠٧م، ص١٥٨-١٥٩.

الخلافة العباسية وتخلصها من سيطرة السلاجقة، فقد كان من حسن طالع الخليفة المقتفي وفاة السلطان مسعود في رجب سنة ٥٤٧هـ\١١٥٢م كانت وفاته نهاية نفوذ السلاجقة في العراق، فقد "ماتت معه سعادة البيت السلجوقي، ولم تقم لهم بعده راية يعتد بها، ولا يُلتفت إليه"(٤). انقسمت الأسرة السلجوقية وتضعضعت قوتها، ونشط الخليفة المقتفي لاستكمال سيادته، فأمر بجمع الجيش، وخرج على رأسه، فاستعاد الحلة والكوفة وواسط، كما استمر بمهاجمة حصونهم في تكريت ودقوقا(٥)، إلى أن استطاع جيش الخلافة في أواخر سنة٥٤٩هـ/١١٥٤م تحقيق أول انتصار حقيقي على الجيش السلجوقي في موقعة "بكمزا"(٦). ولم تمض أيام حتىأُجبر السلطان سليمان على تقبيل " عتبة باب النوبي"(٧) بدار الخلافة. فكان بذلك أول سلطان سلجوقي يفعل ذلك(٨).

يمثل عهد الخليفة الناصر لدين الله ٥٧٥- ٦٢٢هـ\١١٧٩-١٢٢٥م تتويجًا لاستقلال مؤسسة الخلافة العباسية عن تدخلات ما تبقى من نفوذ العناصر الأجنبية المحيطة بالعراق، ونقصد بهم سلاجقة بلاد فارس. ففي عام ٥٨٣هـ\١١٨٧م أرسل السلطان طغرل الثالث(٩) إلى الخليفة الناصر يطلب منه إعادة إعمار دار السلطنة(١٠) ببغداد؛ ليسكنها إذا وصل إلى بغداد، فكان ردّ

٤. أبو الحسن علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير،(ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م) الكامل في التاريخ، ١٠، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠١٠م، ج٩، ص٣٧٣.

٥. أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي،(ت ٥٩٧ه/١٢٠٠م) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ١٩، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)،ج١٨، ص١١٣-١١٤؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٣٩٦-٣٩٧.

٦. بكمزا: قرية تبعد عن بعقوبا فرسخين- أي ما يعادل١٢ميلا. ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت٦٢٦خـ/١٢٢٨م)، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥، ٧ اجزاء، معجم البلدان، ج١، ص٤٧٥.

٧. أشار القلقشندي إليها عند وصفه محلة الحريم والتي بها دار الخلافة بقوله:" محلة تسمى الحريم يعني حريم دار الخلافة وهي قريب من ثلث الجانب الشرقي، وعليه سور ابتداؤه من دجلة وانتهاؤه إليها أيضا كهيئة الهلال أو كنصف دائرة وله أبواب: أولها باب الغربة وهو على دجلة. ثم يليه باب سوق التمر، وهو باب شاهق، ولكنه أغلق في خلافة الناصر لدين الله. ثم باب البدرية. ثم باب النوبي، وفيه العتبة التي كانت تقبلها الملوك والرسل". أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م) صبح الأعشى في صناعة الانشا، ط١، ١٥، شرحه وعلّق عليه محمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت)، ج٤، ص٣٣٣؛ مصطفى جوادواحمد سوسه، دليل خارطة بغداد قديما وحديثا، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٥٨م، ص٢٥٨-١٥٩.

٨. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١٠٢. على الرغم من هذه النتيجة إلا أن السلاجقة بقيت تراودهم فكرة استعادة السيطرة على بغداد من جديد، فقاموا في سنة ٥٥٢هـ بمحاصرة بغداد، لكن السلطان محمد شاه اضطر لرفع الحصاربعد ما لقيه من مقاومة من أهل بغداد واستبسالهم في الدفع عنها بعد حصار استمر أكثر من ثلاثة أشهر. وكان انسحابه نهاية النفوذ السلجوقي على العراق. للمزيد حول جهود المقتفي في مواجهة النفوذ السلجوقي، انظر: محمد صالح القزاز، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير، مطبعة القضاء، النجف، ١٩٧١م،ص٥٩-٦٨.

٩. حكم خلال الفترة ٥٧١-٥٩٠هـ\١١٧٥-١١٩٤م.

١٠. دار السلطنة: كانت تعرف بدار المملكة المختصة بالسلاطين. وكان موقعها بأعلى المخرّم،وكانت دارا لسبكتكين غلام معز الدولة فنقض عضد الدولة أكثرها، وعمل مكانها بستاناً، وجرّ إليه الماء من نهر الخالص لسقيه. ولما ورد طغرل بك بغداد في سنة ٤٤٨هـ عمّر هذه الدار وبنى مدينة عند المخرّم. ثم إن دار المملكة خربت فأعاد بناءها بهروز سنة ٥٠٩هـ. أبوعلي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه (ت٤٢١هـ/١٠٣٠م) تجارب الأمم، ٧، تحقيق أبو القاسم إمامي، دار سروش، طهران،

الناصر مُدويا، عندما أمر بهدم دار السلطنة، وتسويتها بالأرض[١١].

وإذا عدنا إلى الوراء قليلا يمكن القول إن قضية تلاشي رسوم دار الخلافة قد نبهت بعض الكتاب فحاولوا حفظها ولو في الكراريس. ويعتبر هلال بن المحسن الصابئ(ت٤٤٨هـ/١٠٥٦م) كاتب الإنشاء في ديوان الخليفة القائم بأمر الله (ت٤٦٧هـ/١٠٧٤م) أول من تنبه إلى ذلك، فقرر أن يحفظ ذلك التراث ولو بين دفتي كتاب، فصنف كتابه المشهور (رسوم دار الخلافة) بعد أن" وجد أكثر ذلك قد دَرسَ بتقادم عهوده"[١٢].

كان إحياء مراسيم دار الخلافة العباسية خلال حقبة الدراسة أحد أبرز محاور عملية النهوض بالخلافة العباسية من جديد، فقد رأى الخلفاء أن هذه الرسوم تعبر عن كيان الخلافة وهيبتها في نفوس أتباعهم.فكانت وفاة الخليفة أو أحد أفراد أسرته من الأمراء العباسيين وما يصاحب ذلك من مراسيم جزءا من تلك الرسوم التي حرص الخلفاء على إظهارها والاهتمام بها بكل تفاصيلها.

مراسيم العزاء في دار الخلافة العباسية

كان إغلاق أبواب دار الخلافة العباسية ببغداد بمثابة إعلان لخبر وفاة الخليفة، وعلى إثر ذلك تبدأ مراسيم الحداد والعزاء[١٣]، فيُحظر على الجميع الركوب في ذلك اليوم[١٤]. ثم يُستدعى أحد الوعاظ أو الخطباء ويبلّغ بخبر الوفاة، والذي يعقد بدوره مجلس وعظ عام يُعلن فيه وفاة الخليفة. أشار صاحب(كتاب الحوادث) في خبر وفاة الخليفة المستنصر بالله إلى استدعاء الشّيخ عبد اللطيف بن عبد الوهاب الواعظ إلى دار الخلافة، وطُلب إليه أن يعقد مجلس وعظ يعلن فيهخبر وفاة الخليفة المستنصر والبيعة للمستعصم بالله. ومما ذكره في ذلك المجلس:" أيها الناس إن إمامكم المستنصر بالله أمير المؤمنين قد درج إلى رحمة الله تعالى، وقد بويع ولده الإمام المستعصم بالله

٢٠٠٠م، ج٦، ص٢٢-٢٢٣؛ ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، مرجع سابق، ج١٤، ص٢٣٨؛ محمد بن علي بن محمد ابن العمراني، (ت٥٨٠ه\١١٨٤م) الإنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق قاسم السامرائي، ط١، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٤٢١ هـ \ ٢٠٠١ م، ص١٩٦؛ أبو الحسن علي بن محمد الشيباني ابن الأثير،(ت٦٣٠/١٢٣٢) الكامل في التاريخ، تحقيق عبد السلام تدمري، ط١، دار الكتاب، بيروت، ٢٠١٠م، ج٨، ص٥٧٤؛ كمال الدين عبد الرزاق بن أحمد المعروف بابن الفوطي (ت٧٢٣هـ\١٣٢٣م)، مناقب بغداد، دراسة وتحقيق محمد القدحات، دار الفاروق، عمان، ٢٠٠٨م، ص٥٠-٥١؛ أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي(ت٧٦٨هـ\١٣٦٦م)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، ط١، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ج٢، ص٢٥٨. وللمزيد عن دار السلطنة وتطورها، انظر : جورج مقدسي، خطط بغداد في القرن الخامس الهجري، ترجمة صالح أحمد العلي، مطبوعات، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٤م، ص٧٨-٨٣.

١١. ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص٤٤.

١٢. أبو الحسين هلال بن المُحسِّن الصابئ، (ت ٤٤٨هـ/١٠٥٦م) رسوم دار الخلافة، تحقيق ميخائيل عواد، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٤م، ص٥.

١٣. محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي(ت٧٤٨هـ/١٣٧٤م)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ١٧، تحقيق بشار عواد، دار العرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٣م، ج١٣، ص٦٩٤.

١٤. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج١٤، ص٣٣٢.

أبو أحمد عبد الله أمير المؤمنين، أيد الله تعالى به الدِّين، وجعل إيالته[١٥] مباركة على كافة المسلمين"[١٦].

ومن الإجراءات التي كانت متبعة عند إعلان وفاة الخليفة إظهار الاستعدادات العسكرية؛ لحفظ الأمن والنظام، خوفًا من شيوع الفوضى[١٧].

وتشمَلُ مراسيم الحداد ارتداء ملابسالعزاء الرسمية،وينزع الجميع شعاراتهم أيضًا، فيرفع "القضاة والمدرسون الطرحات[١٨] والطيالس[١٩]، ويرفع أرباب الغُرز[٢٠] غُرزهم، وأصحاب المشادّ مشادَّهم[٢١]، أما القادة العسكريون فيلبسون الأقبية[٢٢] البيضاء"[٢٣]. كما يُمنع ضرب الطبول في دار الخلافة[٢٤].

يتولى أستاذ دار[٢٥] الخلافة الإشراف على تجهيز جثمان الخليفة المتوفى، والإشراف على نقل

١٥. يَؤُولُه إِيَالَة إذا أَصلحه وَسَاسَهُ. محمد بن مكرم ابن منظور، (ت٧١١هـ\١٣١١م) لسان العرب، ١٨، اعتنى بتصحيحه أمين عبد الوهاب ومحمد العبيدي، ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٧م،مادة (آل)، ج١١، ص٣٤.

١٦. مجهول، كتاب الحوادث، القرن ٨هـ/١٤م، تحقيق بشار عواد وعماد عبد السلام، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٧م، ص١٨٩-١٩٠.

١٧. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١٣٨.

١٨. من أغطية الرأس، وهي خمار مقور مصنوع من الشّاش الموصلي الذي يلاث على العمامة أو يطرح على الكتفين، ويتدلى على الظهر. دوزي، تكملة المعاجم العربية، ترجمة محمد سليم النعيمي، منشورات وزارة الثقافة، بغداد، ١٩٧٨، ص٢١٢.

١٩. بدري محمد فهد، العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري، مطبعة الارشاد، بغداد، ١٩٦٧م،ص٩١.

٢٠. الغُرَز: ركاب الرجل إذا كان من جلد. معروف الرُّصافي، الآلــة والأداة، تحقيق عبد الحميد الرشودي، منشورات وزارة الثقافة، بغداد، (د ت)، ص٢٣٤.

٢١. المشدَّة: قطعة قماش تكون في عنق الفرس. رينهارد دوزي،المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة أكرم فاضل، مطبوعات وزارة الإعلام، بغداد، ١٩٧١، ج٧، ص٢٧٦.

٢٢. القباء من ملابس البدن الخارجي، ويلبس فوق الثياب أو القميص، ويتمنطق عليه.المعجم الوسيط، دار المعارف، القاهرة،(١٩٧٢-١٩٧٣) مادة(قباء). وهو مقور له كمان قصيران من الأعلى. دوزي، معجم الملابس، ص٢٨٥-٢٩٠.

٢٣. مجهول، كتاب الحوادث، ص٢٠١.

٢٤. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٢٦٤؛ الصابئ، رسوم، ص ١٣٦.لم تجر العادة قديما بأن يضرب الطبل للصلوات بالحضرة لغير الخليفة وإنما أطلق لولاة العهود وأمراء الجيوش ان يضرب لهم في أوقات الصلوات الثلاث التي هي الغداة والعشاءان، إذا كانوا في سفر أو خارج بغداد، فلما ملك معز الدولة رغب أن تضرب الطبول أمام قصره،فسأل المطيع لله ذلك، فلم يجبه لذلك.ولما بنى معز الدولة داره بباب الشماسية فيأطراف بغداد آنذاك، عاود الطلب من جديد، فأذن له الخليفةالمطيع، لكنه شرط أن لا يجاوز بالضرب الباب البارز إلى الصحراء. استمر الحال على ذلك حتى دخل عضد الدولةبغداد، فسأل الخليفة الطائع لله الإذن له في ضرب الطبل على باب داره بالمخرم، وصارت بعد ذلك رسم لمنتقلد الأمر من بعده من ولده. الصابئ، رسوم، ص١٣٦-١٣٧.

٢٥. من المناصب الإدارية التي ظهرت في بغداد منذ منتصف القرن الرابع الهجري\ العاشر الميلادي. وصاحبها مسؤول عن رعاية دار الخلافة وصيانتها، وتوفير ما يلزم ساكنيها، ثم توسعت مهامه وصلاحياته بسبب ضعف مؤسسة الخلافة. للمزيد، انظر: علي بن محمد بن الكازروني (ت٦٩٧هـ\١٢٩٧) مقامة في قواعد بغداد، تحقيق كوركيس عواد وميخائيل عواد، مجلة المورد، بغداد، مجلد ٨، عدد٤، ١٩٧٩م، ص٤٣٤؛ محمد القدحات، منصب أستاذ الدار في

الجثمان إلى ترب الخلفاء في الرُّصافة [٢٦]. وفي تلك الأثناء يتوجه كبار رجال الدولة: الوزير، أستاذ الدار، قاضي القضاة، الحجاب إلى دار الوزارة، وبعد أن يكتمل وصولهم، يسير الجميع مشيًا من غير مداس إلى دار الخلافة و"من غير تطريق[٢٧]". وفي الوقت نفسه تصدر الأوامر إلى رجال الدولة من الزعماء والأمراء وكبار الموظفين ومشايخ الصوفية والمدرسين بأن يصطفوا على طول الطريق الذي ستسلكه جنازة الخليفة[٢٨].

وبعد استكمال تجهيز جثمان الخليفة المتوفى، يقوم عدد من الخدم الخاصين بدار الخلافة بحمل الجثمان من القصر إلى إيوان قصر التاج[٢٩]،فيُصلِّي عليه الخليفة الجديد[٣٠]،وإذا حلّ الظلام، حُمل الجثمان إلى شاطئ دجلة ليستقر في شبَّارة[٣١].

يرافق أستاذ الدار وكباررجالات الدولة الجثمان الى الرصافةحيث مقابر الخلفاء[٣٢]. أما بقية المشيعين فيستقلون السفن والقوارب، والجميع وقوف والشّموع تضيء مياه دجلة[٣٣].إذا وصل الجثمان إلى الضفة الأخرى، يُحمل على الأكتاف، ويسير الجميع بين يدي جثمان الخليفة إلى الموضع المُعدِّ لدفنه[٣٤].

أفاض الأيوبي في وصف مراسيم جنازة الخليفة المستضيء المتوفى سنة ٥٧٥هـ\١١٧٩م فبعد أن جهز الخليفة الناصر جثمان والده المستضيء، أمر أن تهيأ السفينة المعروفة بالزبزب[٣٥] الراسية قبالة دار الخلافة[٣٦] ثم "برز الأمر النبوي بحضور أرباب الدولة وأهل العلم والصوفية

الخلافة العباسية (٣٥٢-٦٥٦هـ) مجلة جامعة الملك خالد، المملكة العربية السعودية، مجلد ٤، عدد٧، ٢٠٠٦، ص١١٨وما بعدها.

٢٦. عمر بن محمد بن شاهنشاه الأيوبي(ت٦١٧هـ/١٢٢٠م)، مضمار الحقائق وسرّ الخلائق، تحقيق حسن حبشي، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٦٨م، ص٥٨.للمزيد عنها، انظر نهاية الدراسة تحت عنوان: مقابر الخلفاء بالرصافة.

٢٧. طرَّق بتشديد الراء : جعل له طريقا. ويقصد أنهم يسيرون بدون انتظام.ابن منظور، لسان العرب، مادة :(طرق). ويقصد بها أن الجميع يمشون دون انتظام على عكس ما هو متبع في مراسيم سير رجالات الدولة في الظروف الاعتيادية.

٢٨. مجهول، كتاب الحوادث، ص٢٠١.

٢٩. التاج: من دور دار الخلافة العباسية وضع أسسه الخليفة المعتضد وأتمه المكتفي. الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٣.

٣٠. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١٩١؛ يوسف بن قزأوغلي سبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م) مرآة الزمان في تاريخ الأعيانط١، مجلس دائرة المعارف الإسلامية، حيدر آباد، الهند، ١٩٥١-١٩٥٢م، ج٨، ق١، ص٢٣٥.

٣١. الشبَّارة: ضرب من السفن الصغيرة عرفت منذ أواخر القرن الثالث الهجري، وكانت تستخدم في العراق في التنقل والتجارة. دوزي، تكملة، ج١، ص٧١٩؛إبراهيم السامرائي، المجموع اللفيف. معجم في المواد اللغوية والتاريخية والحضارية، دار عمار، عمان، ١٩٨٧م، ص٣٥.

٣٢. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ١٤٧؛ ابن العمراني، الإنباء في تاريخ الخلفاء،ص٢٢٥.

٣٣. مجهول، كتاب الحوادث، ص٢٠١.

٣٤. الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٥٨.

٣٥. وصفها الأيوبي بقوله:" وقد غَرِمَ عليها مالا جزيلا وهي عجيبة الصنعة، يجدف فيها ملاحون عدة، جماعة يجدفون الهوى من مؤخره، وجماعة يجدفون في الماء من صدرها.مضمار الحقائق، ص٥٨.

٣٦. الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٥٩. ولعل ذلك سببا آخر في نقض تلك المركب، لما له من ذكرى سيئة تذكر الخلفاء

والقراء وأشراف الناس على طبقاتهم لتحويل الإمام السعيد المستضيء بأمر الله، فحضر الناس واكترى كل واحد منهم سفينة على قدره وسعته، وأخذوا من الشّموع ما لا يحُصى حصرا ولا عدة، فاشتعل في تلك الليلة، فكان الشّطُّ بأسره من كلا جانبيه لا يرى فيه موضع خال إلا وفيه سفينة أو سمارية(٣٧) يزدحم بعضها بعضًا، فكانت دجلة تتقد من الجانبين كشعلة نار من كثرة الشّموع التي أُشعلت في تلك الليلة. وكان الناس قياما في أماكنهم، والقراء يقرأونالقرآن، وأهل بغداد من الجانبين لا يحصي عدتهم إلا الله تعالى، بحيث لم يتخلف عن الخروج في تلك الليلة إلا عاجز لم يقدر على الخروج"(٣٨).

وفي العام نفسه الذي تُوفِّيَ فيه المستضيء أمر الناصر بنقض الزبزب وقال:"لا حاجة أن تكون هذه بالدجلة بإزاء التاج الشّريف لترقب من يموت يُحمل بها، وإني كلما رأيتها تكدرت عليَّ الحياة، وإن مت ما يُتعذر أن يُعمل مثلها". وكانت من أحسن السفن المركوبة. وأشار الأيوبي إلى أن سلاطين السلاجقة كانوا إذا وردوا إلى بغداد وتغلبوا على دار الخلافة، وأرادوا الحضور لدار الخلافة، فلا يركبوا إلى التاج إلا في هذه السفينة(٣٩).

وكان الرسم خروج جنائز الخلفاء وأمراء الأسرة العباسية من قصرالتاج إلى مقابر الرُّصافة ليلاً، لذا لم يُسمح بإخراج أيجنازةفي مثل هذا التوقيت مهما علت مكانة المتَوفَّى أو جاه ذويه. أشار الأيوبي إلى ذلك عند حديثه عن وفاة أم أستاذ الدار أبي الفضل ابن الصاحب، والذي التمس أن تُخرج جنازة والدته ليلا" فلم يُمكّن من ذلك، وأُمر بإخراجها نهارًا"(٤٠).

وبعدانتهاء مراسيم الدفن يتوجه جميع رجال الدولة إلى بيت النوبة(٤١) من دار الخلافة لأجل الجلوس للعزاء،وقراءة الختمات(٤٢) التي تُهدى لروح الخليفة المُتوفى(٤٣). وكان هناك عدد من القراء المعينين لهذه الغاية، ذكر ابن الدبيثي منهم أحمد بن علي بن عيسى بن هبة الله الهاشمي(ت٥٩٣هـ(٤٤)/١١٩٦م).

بسيطرة تلك العناصر على دار الخلافة.

٣٧. يقول الصابئ في وصف دجلة حين وردها موكب رسول ملك الروم في عهد المقتدر:" وفي دجلة الشذاءات والطيارات والزبازب والشبارات والزلالات والسمريات بأفضل زينة. وهذه كلها تدخل في باب السفن الصغيرة التي تستخدم للنقل والتجارة. الصابئ رسوم، ص١٢؛ السامرائي، المجموع اللفيف، ص٣٥.

٣٨. الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٥٨.

٣٩. المصدر نفسه، ص٥٩.

٤٠. مضمار الحقائق، ص١٧٣.

٤١. بيت النوبة: جزء من دار الخلافة العباسية،مطلة على دجلة. فيها كانت تجري جميع مراسيم دار الخلافة. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٥، ص٢١٣.

٤٢. قراءة القرآن الكريم ثوابًا للمتوفّي أي قراءة القرآن كاملا، وإهداء ثوابه وأجره للمتوفى.

٤٣. أبو عبد الله محمد بن سعيد ابن الدُبيثي (ت ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م)ذيل تاريخ مدينة السلام بغداد، تحقيق بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٦م، ج٤، ص٣٨٦.

٤٤. ابن الدبيثي، ذيل تاريخ مدينة السلام، ج٢، ص٣١٨.

يستمر رجال الدولة في زيارة تربة الخليفة طيلة أيام العزاء تقرأ فيها الختمة في كل يوم، ويعظ الوعاظ، وتختم أيام زيارة قبر الخليفة بالدعاء له بالرحمة،ويتولى أمر ذلك الدعاء أحد كبار العلماء(٤٥).

ومن القواعد المرعية أنه لم يكن يسمح لأحد الركوب في أثناء سيرالجنازة وكذلك في أيام العزاء(٤٦) فكان جميع رجالات الدولة يحضرون إلى مجلس العزاء مشاة(٤٧). وكانت الأوامر صارمة في مراعاة ذلك، مهما كانت الأسباب. فلما تُوفيِّت والدة الخليفة الناصر لدين الله سنة٥٩٩هـ/١٢٠٢م أمر "أن يمشي الناس من دجلة إلى تربتها المجاورة لقبر معروف الكرخي – والمسافة بعيدة– وكان الوزير سميناً(٤٨) كاد أن يهلك، وقعد في الطريق أكثر من ثلاثين مرة"(٤٩).

في أيام العزاء الثلاثة يتكلم الوعاظ بما يناسب المصاب(٥٠). وفي اليوم الأخير ينشد الشّعراء معزين بالخليفة المُتوَفّى ومهنئين بالخليفة الجديد. أورد الذهبي مطلع قصيدة صفي الدِّين عبد الله بن جميل التي نظمهافي عزاء الخليفة المستنصر بالله (٥١):

عزّ العزاء وأعوز الإلمام ... واسترجعت ما أعطت الأيام
فدع العيون تسحِ بعد فراقهم ... عوض الدموع دما فليس تلام
بانوا فلا قلبي يقر قرارة ... أسفا ولا جفني القريح ينام

---

٤٥. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج١٣، ص٦٣٦؛ مجهول، كتاب الحوادث، ص٢٠١.

٤٦. المصدر نفسه، ص٥٢٧.

٤٧. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١٤٠؛ الغساني، العسجد، ص٥٥٥. وكان يعلن الحداد في حال تعرض بغداد إلى كارثة كما حدث سنة (٦٥٤هـ/١٢٥٦م) عندما تعرضت لغرق شبه تام حيث صدرت الأوامر من دار الخلافة بعد أن كشف الله الغمة بالعودة " بعودة أصحاب المناصب والزعماء إلى عوايدهم برفع الغواشي والركوب وكانوا قد منعوا من ذلك منذ ابتداء الغرق". مجهول، كتاب الحوادث، ص٣٣٣.

٤٨. هو ناصر بن مهدي الرازي أبو طالب علي بن أنجب البغدادي (ت٦٧٤هـ/١٢٧٥م) ابن الساعي (٦٧٤هـ/١٢٧٥م)، نساء الخلفاء. المسمى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء، تحقيق مصطفى جواد، القاهرة، (د. ت)، ص١١٧-١١٩.

٤٩. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٥١٤.

٥٠. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٧، ص٣٠٠؛ ابن الدبيثي، ذيل تاريخ مدينة السلام، ج٤، ص٤٠٨؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٧٤١؛ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، نكث الهميان في نكت العميان، وقف على طبعه أحمد زكي بك، مصر، ١٩١١م، ص٢٢٥؛ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ/١٣٦٢م) الوافي بالوفيات تحقق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت،١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، الوافي، ج٢، ص٦٩. وأحيانا كانت تمتد أيام العزاء أسبوعا كما حدث في عزاء الخليفة المستنجد. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٢٨٥

٥١. محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، (ت٧٤٨هـ/١٣٧٤م) سير أعلام النبلاء، ٢٨، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م،ج٢٣،ص١٦٨.

وفي اليوم الثالث ينتظر المعزون أمر الخليفةبإنهاء مراسيم العزاء بمطالعةيرسلهاإلى الوزير،فيقوم الوزيربدوره بقراءتهاعلى الحضور والجميع قيام.تتضمن المطالعة التأسي، والوعد بالعدل والإحسان، والأمر في الوقت نفسه بالقيام من مجالس العزاء(٥٢).

وقد حفظ ابن الجوزي نصًا من تلك المطالعات، فبعد أن بويع المستنجد (٥٥٥-٥٦٦هـ/١١٦٠-١١٧٠م) خلفا لوالده المقتفي (٥٣٠-٥٥٥هـ/١١٣٦-١١٦٠م)، خرج توقيعه إلى وزيره في ثالث أيام العزاء. ومما جاء فيه:" [الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ]. (البقرة: ١٥٦) تسليمًا لأمر الله وقضائه فصبر الحكمة النافذ ومصابه في الإمام السعيد الذي عظَّم الله مصابه، واعتاض حلو العيش صابه، وفتَّ في عضد الإسلام وغدا به الدِّين واهي النظام. إن الصبر عليه لبعيد، وإن الكمد عليه مع الأيام جديد. لقد كان سكينة مغشية المراد، ورحمة منتشرة في العباد، براً بهم، مُتحنِنًا عليهم، عطوفًا. فجدد الله سبحانه لديه من كراماته الراجحة وتحياته الغادية الرائحة، ما يحله بحبوحة جنانه وينيله مبتغاه من إحسانه. ومع ما منَّ الله عليه من استقرار الأمر في نصابه وحفظه على من هو أولى به، فليس إلا التسليم إلى المقدور والتفويض إليه سبحانه في جميع الأمور، فهو يوفي المثوبة والأجر. والسعيد من كان عمله في دنياه لأخراه، ورجوعه إلى الله سبحانه في بدايته وعقباه. والله تعالى يوفق أمير المؤمنين لما عاد برضاه وصلاح رعاياه ليعود النظام إلى اتساقه ونور الإمامة إلى إشراقه، فانهض أنت إلى الديوان لتنفيذ المهام، ولتثق بشمول الإنعام ولتأمر الحاضرين بالانكفاء إلى الخدمات، وليتقدم بضرب النوبة في أوقات الصلوات"(٥٣).

وكان العزاء بالخلفاء لا يقتصر علىدار الخلافة والساكنين بها، بل كانيعمّ بغداد،فلما تُوفِّيَ الأمير أبو الحسن علي ولد الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢هـ/١١٨٠-١٢٢٥م) سنة٦١٢هـ\١٢٠٧م أظهر الخليفة الجزع على فقده حتىسمع الناس بكاءه، وعملت له الملوك الأعزية في البلدان، وأمر الخليفة بالنياحة عليه ببغداد، وفرشت الأسواق بالرماد وأغلقت الأسواق، وعُطِلت الحمامات(٥٤).

مشاركةحكام الأقاليم بمراسيم العزاء

ويعم الحزن كذلكالأقاليم والأطراف التابعة لدار الخلافة، فيقيم حكامها مجالس العزاء في عواصم أقاليمهم. فلما وصل خبر وفاة ابن الخليفة الناصر لدين الله الملك المعظم أبو الحسن علي

٥٢. الأيوبي، مضمار الحقائق، ص٥٨؛ ابن الدبيثي، ذيل تاريخ مدينة السلام، ج٤، ص٤٠٨؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج١٤، ص٣.

٥٣. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص١٤٠. وانظر نصَّ مطالعة المستعصم بالله (٦٤٠-٦٥٦هـ/١٢٤٢-١٢٥٨م). الملك الأشرف إسماعيل بن العباس الغساني(ت ٨٠٣هـ/١٤٠٠م)، العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك، تحقيق شاكر عبد المنعم، دار البيان، بغداد، ١٩٧٥، ص٥١١.

٥٤. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٥٧٢.

سنة٦١٢هـ/١٢١٥مجلس ملوك الأطراف" في العزاء لابسين شعار الحزن خدمة للخليفة"[٥٥]. كذلك عُقدت مجالس العزاء بدمشقبعد وفاةالخليفة المستنصر بالله (ت ٦٤٠هـ/١٢٤٢م)[٥٦].

ويتوافد أمراء الأطراف والاقاليمإلى بغداد لتقديم واجب العزاء،ويحرص الجميع أثناء دخولهم بغداد على إظهار الحزن ولبس ملابس العزاء. وإذا تعذر قدومهم إلى بغداد، فإنهم كانوا يرسلون الرسل لتقديم واجب العزاء نيابةً عنهم. وبعد أن يصل الرسول إلى بغداد يستقبله الوزير ويُعَد له مكاناً لإقامته، لحين السماح له بالمثول بين يدي الخليفة الجديد. عند ذلك يتوجه الرسول إلى ديوان الخليفة فيقدم العزاء بلسان مرسله،فحينما توفي الخليفة المقتفي لأمر الله ٥٥٥هـ/١١٦٠م أرسل السلطان خوارزم شاه ابن أرسلان إلى الخليفة المستنجد برسول ليقدم واجبي: العزاء بسلفه، والتهنئة بتوليه الخلافة، وحمّله رسالة في هذا المعنى تضمنت إظهارعمق الأسى والحزن الذي حلَّ في نفوس الخوارزميين على وفاة المقتفي، وإقامتهم العزاء مدة ثلاثة أيام، كما قدَّم الاعتذار عن عدم حضور السلطان لبغداد[٥٧].

وكذلك لما توفي الخليفة الظاهر (ت٦٢٣هـ/١٢٢٦م) قدم رسول صاحب الموصل الوزير ضياء الدين ابن الأثير إلى بغداد يحمل رسالة إلى الخليفة المستنصر بالله فيها التعزية بوفاة والده وتهنئته بتوليه منصب الخلافة[٥٨].

وأشار صاحب (كتاب الحوادث) أنه لما تُوفِّيَ الخليفة المستنصر بالله وصل ركن الدِّين إسماعيل بن بدر الدِّين لؤلؤ صاحب الموصل" فخرج إلى لقائه الأمراء،فدخل وعليه ثياب العزاء"[٥٩]. وللغاية نفسها وصل نور الدِّين أرسلان شاه بن زنكي صاحب شهرزور، فدخل بغداد وعليه ثياب العزاء[٦٠].

ومن صور التعزية بالخلفاء ما جاء على لسان ضياء الدِّين نصر بن محمد ابن الأثير، رسول صاحب الموصل معزيًا بوفاة الخليفة الظاهر، ومبايعًا للخليفة المستنصر بالله:" ما الليل والنهار لا يعتذران وقد عظم حادثهما، وما للشمس والقمر لا ينكسفان وقد فُقد ثالثهما: [الطويل]

فيا وحشة الدنيا وكانت أنيســة   ووحدة من فيها لمصـــــرع واحد

٥٥. أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي(ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ٣جـ، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٩٥٦م ج١، ص٢٢٨.

٥٦. أبو محمد بن عبد الرحمن بن إسماعيل أبو شامه (ت٦٥٦هـ\١٢٦٦م) تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، ط٢، صححه الشيخ محمد زاهد الكوثري، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٤م، ص١٧٢.

٥٧. رشيد الدين الوطواط(ت٥٧٣هـ\١١٧٧م)، رسائل،نشرها محمد فهمي، مطبعة المعارف، مصر، ١٣١٥هـ،ج١، ص٢٥.

٥٨. ابن كثير، البداية، ج١٥، ص١٥٢.

٥٩. مجهول، الحوادث، ص١٩٤.

٦٠. المصدر نفسه، ص١٩٤.

وهو سيدنا ومولانا الإمام الظاهر أمير المؤمنين، الذي كانت ولايته رحمة للعالم، واختير من أرومة النبي – صلى الله عليه وسلم– الذي هو سيد ولد آدم.... فيا ويح الإسلام، فجع أولا بناصره، وقرّب الوقت بينهما حتى كاد لا يعثر أوله بآخره... وما كان الله ليسوء دينه بمصاب خليفتين، ولا يجلو ظلمته بصباح سافر وقد جاء بسيدنا ومولانا المستنصر بالله أمير المؤمنين، فأرضى به كل قلب ساخط"[٦١].

وتُختم التعزية بتقديم البيعة للخليفة الجديد "وقد حضر العبد نائبا عن مرسله في إعطاء صفقته بيمينه، وثمرة قلبه، آخذا بقوله تعالى{إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً } [٦٢].

مراسيمالعزاءبأمراء البيت العباسي

وكانت مراسيم العزاء تُجرى بوفاة أمراء الأسرة العباسية، لكنها لم تكن تماثل من حيث الحجم والتفاصيل ما كان يتم منها في حالة وفاة الخليفة. فبعد الصلاة على الأميرالمُتوفى يُنقل جثمانه بشبارة عبر دجلة إلى حيث مقابر الخلفاء في الرُّصافة. ثم يجلس الجميع في مجالس العزاء إلى أن يأتي أمر الخليفة بالنهوض من العزاء[٦٣]. فلما تُوفِّيَت السيدة عائشة بنت الخليفة المستعصم بالله سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م "حضر الناس على اختلاف طبقاتهم إلى دار الوزير، وركبوا بين يديه في الثياب بغير طُرز[٦٤]ولا رفع غاشية[٦٥]، ولا لبس مداس، ورُفعت حلية دوابهم، ورفع القضاة والعدول والمدرسون الطرحات والطيالس، وخرجت الجنازة على رؤوس الخدم.." [٦٦]. كذلك عندما تُوفِّيَت السيدة خديجة إحدى بنات المستعصم بالله سنة ٦٤٦هـ\١٢٤٨م عمل لها ما عمل لأختها، وزيد في ذلك أن "جلس صاحب الديون في العزاء على الأرض"[٦٧].

إلا أن هناك حالات استثنائية كانت تتم فيها المراسيم عينها التي كانت تُعد ضمن المراسيم الخاصة بوفاة الخلفاء، ويظهر ذلك واضحا في مراسيم جنازة السيدة زمرد خاتون والدة الخليفة الناصر لدين الله٥٩٩هـ\١٢٠٧م، فقد "عظم على الخليفة مصابها، وتجرع لفقدها مرَّ الأحزان". وصدرت أوامره بأن تجري لها المراسيم عينها التي تعمل للخلفاء، فحضر جميع أرباب الدولة إلى

٦١. ابن الشَّعار، عقود الجمان، ج٧، ص٥١؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج١٣، ص٦٤٠.

٦٢. ابن الشَّعار، عقود الجمان، ج٧، ص٥٢–٥٣. سورةالفتح١٠، آية

٦٣. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٨، ص٤٩، ص١٢٢، ص١٢٦.

٦٤. الطراز: معناه التطريز بلغة عصرنا. وكان يطلق على الثوب الموشى لاسيما ما كان موشى بخطوط معترضة. وكان لباس الخلفاء والأمراء والأعيان. أبو الفتح ناصر بن عبد السيد المطرزي(ت٦١٦هـ\١٢١٩م)، كتاب المغرب في الكلام المعرب، دار الكتاب العربي، بيروت، (د ت)، ص٢٨٩؛ السامرائي، المجموع اللفيف، ص٢٣.

٦٥. الغاشية: غاشية السرج، وهي غطاؤه. ابن منظور، لسان العرب، فصل الغين. ووصفه القلقشندي بأنه غطاء مزركش يوضع على ظهر الفرس، يحمله أحد أعيان الخدم الركبدارية. القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج٤، ص٧.

٦٦. مجهول، الحوادث، ص٢٠٠–٢٠١.

٦٧. الصفدي، الوافي، ج١٣، ص١٨٢.

دار الخلافة لأجل الصلاة عليها، لابسين البياض، ورفعت الغرز والطرحات والبسملة[٦٨] من بين أيدي الأمراء[٦٩]، وعمل العزاء شهرا. وأمر الناصر بتفريق ما خلفت من ذهب وجوهر وثياب"، ولم يضرب طبل ولا شُهر سيف، ودام العزاء سنة كاملة"[٧٠].

وجرت المراسيم نفسها من قبل عند وفاة السيدة سلجوقي خاتون زوج الخليفة الناصر[٧١]. ولما تُوفِّيَت السيدة عائشة بنت الخليفة المستعصم بالله ٦٤٣هـ/١٢٤٥م سار الجميع بين يدي التابوت بالبياض بغير طرز ولا رفع غاشية، حفاة بغير مداس[٧٢].

وفي أيام العزاء بوفاة أحد أمراء البيت العباسي يرفع الوزير وكبار رجالات الدولة التعازي المكتوبة إلى ديوان الخليفة، من ذلك ما أورده صاحب الحوادث في عزاء عائشة بنت الخليفة المستعصم بالله (ت٦٤٣هـ/١٢٤٥م). فقدكتب الوزير ابن العلقمي:" [إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ [٧٣]. أجزل الله تعالى ثواب الخدمة الشّريفة المقدسة النبوية الإمامية المستعصمية بالله على احتسابها وجزاها أفضل جزاء الصابرين عند جزع النفوس واكتئابها، وأفاء عليها ظلا من البقاء ظليلا، ورجع طرف الحوادث عن حوزتها الشّريفة حسيرا كليلا، وعوّض عمّن عبر وذهب بحراسة من غبر مما وهب، وجعل السادة للمولى المعظمين في حرز حياطته، وكلأهم من كل حادث بعين حفظه التي لا تنام ورعايته، وأدام للدنيا وأهلها بقاء الخدمة الشّريفة، واستمرار عصرها، وخلود الدولة الحالية بمضاء مراسيمها العلية ونفاذ أمرها"[٧٤].

وكان العزاء بأحد أمراء البيت العباسي مدعاة إلى تعطيل كل مظاهر الاحتفالات حتى الدِّينية منها كعيدي الفطر والأضحى. جاء في حوادث سنة٦٤٥هـ/١٤٢٧م– وهو العام الذي تُوفِّيَت به والدة الخليفة المستعصم بالله أنه" لم يخرج موكب في هذا العيد، ولا ركب أحد، ولا ضرب طبل. وبرز الأمر إلى كافة الزعماء ألا يركب منهم أحد... ولم يجلس الوزير للهناء"[٧٥].كذلك لما توفيت السيدة والدة الخليفة المستعصم بالله سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م وصادفت وفاتها عيد الأضحى، لذلك أُعلن الحداد، ولم يسمح بخروج الموكب، ولا ضرب طبل، بل اكتُفِيَ بخروج الخطيب إلى المصلى لصلاة العيد[٧٦].

---

٦٨. في تحقيقه لأصل اللفظة ومدلولها أشار بشار عواد إلى عدم تحديد المصادر لذلك، ولكن قال بأنها يمكن أن تكون شيئا فيه "بسم الله الرحمن الرحيم" يحمل بين أيدي كبار الموظفين. كتاب الحوادث، ص٥٤(هامش٢).

٦٩. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج١٢، ص١١٦٧؛ الصفدي، الوافي، ج١٣، ص١٨٢

٧٠. المصدر نفسه، ج١٣، ص١٨٢

٧١. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج١٢، ص٧٧٧.

٧٢. الغساني، العسجد المسبوك، ص٥٧٣. وتكرر مثل ذلك أيضا عن وفاة السيدة ست العرب بنت الأمير أبي القاسم عبد العزيز ابن الخليفة المستنصر سنة ٦٤٤ هـ. الغساني، العسجد المسبوك، ص٥٤٨.

٧٣. الزمر، الآية ١٠.

٧٤. مجهول، كتاب الحوادث، ص٢٤٧.

٧٥. الغساني، العسجد، ص٥٥٥.

٧٦. المصدر نفسه، ص٥٥٥.

ليس هذا فحسب، فعلى الرغم من حاجة الخلافة العباسية إلى إظهار احتفالاتها ببعض الانتصارات العسكرية (المحدودة) خلال هذه المرحلة من عمر الخلافة، إلا أن الحزن والعزاء بوفاة خليفة أو أحد أمراء البيت العباسي كان يؤدي إلى إلغاء تلك الاحتفالات. ففي عام٦١٢هـ/١٢٠٧م حققت جيوش الخلافة العباسية النصر على منكلي[٧٧] صاحب هَمَذان وأصبهان والرّيّ، وحمل رأسه إلى بغداد، وخرج الموكب يتبعه عامة أهل بغداد للاحتفال بهذا النصر، إلا أن موت ابن الخليفة الناصر الملك المعظم علي كان سببًا لإلغاء كل تلك المظاهر الاحتفالية[٧٨].

مقابر الخلفاء بالرصافة[٧٩]

انفرد ابن الساعي بإيراد وصف دقيق لمقابر الخلفاء بالرصافة، والذي اعتمد فيه المشاهدة والزيارة، فقال:" وفي وسط هذه التربة صحن عظيم السعة، متماثل الجهات مربع، عليه الستائر المنقوشة، تُجذب وتمد في رفعها بشواريف، فتظلل في الشتاء والمصيف، وفي كل جهة من تربيعه ثلاثة أبوب تُفضي إلى رواق سامي الرفعة، عزيز البقعة. وعلى كل باب مصرعان من الساج عليهما ستور الديباج والحرير، ويفوح من أفنيتها نشر المسك والعبير، فالرواق الذي عن يمين الداخل مرسوم بجلوس أرباب الدولة والأمراء إذا حضروا لإقامة العزاء"[٨٠]. ولها "دهليز طويل المسافة، فيه الحُجر المستحسنة والمقاصير الحسنة، وقد رُسمت هذه الحجر برسم الصدور والأمراء وأرباب الدولة والوزراء إذا قصدوا الزيارة لإقامة وظائف العزاء"[٨١].

وفي عهد الخليفة المستنصر بالله أمر الخليفة بإضافة قاعة أخرى لتربة الخلفاء، أعدّها لتكون مدفنًا له عند وفاته، وجعل في أحد جنباتها" مجلس مزخرف بأنواع المحاسن، قد أودع من النقوش ابدعها، ومن الصنائع أبرعها، مخصوص بجلوس الوزراء وأرباب الدولة وأكابر الأمراء في

٧٧. استولى على هَمَذان وأصبهان والري بعد أن قتل والي الخليفة على تلك البلاد، مما دفع الخليفة لتجهيز جيش لحربه، كما طلب من أزبك بن البهلوان صاحب أذربيجان ومظفر الدِّين كوكبري صاحب إربل مساعدته في حربه ضد منكلي، ولما تلاقت الجيوش هرب منكلي ومات في تلك السنة بظروف غامضة. ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص٢٩٢؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٥٧٢؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص٣٤٨.

٧٨. ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص٢٩٢؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج٨، ق٢، ص٥٧٢.

٧٩. وتعرف بمقابر قريش ببغداد، وهي مقبرة مشهورة ومحلة عليها سور، تقع بين الحربية ومقبرة أحمد ابن حنبل والحريم الطاهري، فيها قبر موسى الكاظم بن جعفر الصادق. وكان أول من دفن فيها جعفر الأكبر بن المنصور أمير المؤمنين في سنة ١٥٠هـ. وكان المنصور أول من جعلها مقبرة لما ابتنى مدينته. ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص١٦٣. وللمزيد حول التطور العمراني للمقبرة وما نشأ حولها من عمران حتى صارت محلة كبيرة انظر: ابن الفوطي، ص٧٠؛ صالح أحمد العلي، خطط بغداد(الجانب الغربي)، مطبوعات المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٥م، ص٢٠١-٢١٢.

٨٠. علي بن أنجب بن الساعي(ت٦٧٤هـ/١٢٧٥) المقابر المشهورة والمشاهد المزورة، تحقيق إحسان الثامري، دار الفاروق، عمان، ٢٠١٤م، ص٥٠.

٨١. المصدر نفسه، ص٥٢.

مواسم إقامة رسم العزاء وإدارة الربعات[٨٢] الشريفة وقراءة القراء واستماع المواعظ وإنشاد الشعراء"[٨٣].

وكانت بدايات تلك التربة قد أمرتبإنشائها السيدة شغب والدة الخليفة المقتدر بالله[٨٤]. والسبب الذي دفع السيدة شغب إلى إنشاء هذه التربة، هو وجود قبر أبي نصر فتح الموصلي الزاهد(ت٢٢٠هـ/٨٣٥م)طلبًا للبركة[٨٥]. وقد عرفت على مدار قرن من الزمان بتربة شغب. جاء في ترجمة الأمير إسحاق ابن الخليفة المقتدر (ت٣٧٧هـ/٩٨٧م):" ودفن بتربة شغب"[٨٦]. وأشار ابن الجوزي إلى ذلك أيضًا في ترجمته للأمير عبد الوهاب ابن الخليفة الطائع " ودفن في التربة التي بناها الطائع للّه بالرصافة بإزاء تربة جدته شغب"[٨٧].وكان الخليفة المقتدر بالله (ت ٣٢٠هـ/٩٣٢م) أول من دفن فيها من الخلفاء[٨٨]، وكان آخرهم الخليفة المستنصر بالله (ت٦٤٠هـ/١٢٤٢م) [٨٩].

وكان لهذه التربة ديوان ونواب ومشرفون وكتّاب، وكذلك ناظر لوقوفها التي يُحصّل منها في كل عام أُلوف[٩٠].

وقد استُحدث في هذه المدة عادة زيارة مقابر الخلفاء بالرُّصافة؛ فإذا حلّ رجب من كل عام، توجه الوزير وجميع رجال الدولة في موكب عظيم إلى تربة الرُّصافة مدفن الخلفاء، فيجتمعون بها لقراءة الختمات والدعاء وإهداء ثوابها لأرواح الخلفاء المدفونين بتلك التُرب[٩١].

ملابس العزاء

وقبل أن نختم الحديث عن العزاء في دار الخلافة، لا بد من الإشارة إلى طبيعة اللباس الذي كانيرتديه رجالات الدولة في أيام العزاء. كان اللون الأبيض هو اللون الرسمي لملابس الحداد في العصر العباسي. فلما تولى المقتدي الحكم سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م " جلس في دار

٨٢. الربع من القرآن الكريم : ثُمْنُ الجُزْء.يعتبرالرُّبـْـعُ من التقسيمات التي تمّ الاصطلاح عليها في القرآن، ولذلك فالقرآن مكون من مائتين وأربعين ربعًا.

٨٣. ابن الساعي، المقابر، ص٥٢.

٨٤. المصدر نفسه، ص٥٣.

٨٥. المصدر نفسه، ص٥٣.

٨٦. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٣٢٤؛ أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي المعروف بابن كثير(ت ٧٧٤هـ/١٣٧٤م)، البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٨م، ج١١، ص٣٤٨.

٨٧. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٤، ص٣٢٦.

٨٨. ابن الساعي، المقابر المشهورة، ص٥٤-٥٩.

٨٩. المصدر نفسه، ص٥٤-٥٩.

٩٠. المصدر نفسه، ص٥٤. وقد تعرضت ترب الخلفاء بالرصافة للتدمير والحرق من قبل قوات التتار الذين اجتاحوا بغداد عام ٦٥٦هـ، بعد أن نبشوا قبور الخلفاء، وأحرقوها. مجهول، كتاب الحوادث، ص٣٦٤.

٩١. ابن الكازروني، مقامة، ص٤٢٧-٤٢٨؛ الغساني، العسجد المسبوك، ص٤٢٢، ص٥٦٣.

الشَّجرة[٩٢]بقميص أبيض، وعمامة لطيفة بيضاء، وطرحة قصب"[٩٣]. وقال ابن الدبيثي في ترجمته لأبي داود سليمان بن رسلان:" ولما أفضت الخلافة إلى سيدنا ومولانا الإمام المفترض الطاعة على كافة الأنام أبي العباس أحمد الناصر لدين الله– خلّد الله ملكه– شرفه بتوليته النيابة بديوان المجلس لخبرته وسنّه... وخُلع عليه بالتاج الشريف جبّة إبريسم[٩٤] بيضاء ومصمت[٩٥]وبقيار[٩٦]أبيض لأجل العزاء بالإمام المستضئ بأمر الله"[٩٧].

وأشار مؤلف (كتاب الحوادث) عند حديثه عن تولي المستعصم بالله الخلافة إلى خلعه على مؤدبه علي بن النيار قميص أبيض وبقيار أبيض، والسبب في ذلك[٩٨]:" أنهم كانوا في أيام عزاء الخليفة المستنصر بالله"[٩٩].

الخاتمة:

كان إحياء رسوم دار الخلافة العباسية بمختلف أشكالها أحد أبرز الأولويات التي أولتها مؤسسة الخلافة اهتماما خاصًا في العصر العباسي الأخير. وقد حرصت دار الخلافة من خلال دار التشريفات المخصص عملها لهذه الغاية على الالتزام الشديد بتطبيق تلك الرسوم، وعدم التهاون بها مهما كانت الظروف والأسباب.

كانت مراسيم العزاء من جملة الرسوم التي أولتها مؤسسة الخلافة عنايتها، فقد أُعدت له قواعد وضوابط يبدأ تنفيذها منذ لحظة وفاة الخليفة أو أحد أفراد أسرته مرورًا بتشييع الجثمان إلى مدافن الخلفاء بالرصافة، وانتهاءً بمجلس العزاء وما يرافقه من ترتيبات.

وإذا كان السواد هواللباس الرسمي الذي يجب على جميع موظفي الدولة ارتداؤه،فإن البياض كانشعار الحداد، هو الزيّالرسمي الذي على رجال الدولة ارتداؤه طوال أيام الحداد، ويرتديه حتى الخليفة الجديد في يوم بيعته.

٩٢. من دور دار الخلافة العباسية، أنشاها الخليفة المقتدر بالله، وسميت بهذا الاسم نسبة للشجرة التي صُنعت من الذهب والفضة في وسط البركة التي كانت تتوسطها. ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص٤٢١.

٩٣. ابن الجوزي، المنتظم، ج١٦، ص١٦٥.

٩٤. ابرسيم: بمعنى الحرير الخام. للمزيد حول أصل الكلمة والاختلاف في تفسيرها، انظر: رشيدةاللقاني،ألفاظ الحياة الاجتماعية في أدب الجاحظ، منشورات جامعة الملك سعود، الرياض،(د ت)، ص١٦٣.

٩٥. المصمت: الذي لا يخالط لونه لون. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط،ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت،١٩٩٧ مادة(صمت).

٩٦. البقيار: فارسي معرب، وهي نوع من العمائم، تمتاز بكبر حجمها. دوزي، تكملة ١٩٧٨، ج١،مادة (بقيار).

٩٧. ذيل تاريخ مدينة السلام، ج٣، ص٣٥٥.

٩٨. المصدر نفسه، ص٢٢٨.

٩٩. مصطفى جواد، في التراث العربي، قدَّم له وأخرجه ونصَّصه وفهرسهُ: محمد جميل شلش وعبد الحميد العلوجي، منشورات وزارة الإعلام ،دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٥م،ج١، ص٤٦٠–٤٦١.

Mourning Ceremonies in Dar the Abbasid Caliphate in the last era (550-656h \1155-1258 AD)

Mohammad Abdullah Alqadahat *

ABSTRACT

The mourning ceremonies represent an important aspect of the protocols that the caliphate institution was devoted to show. Closing the doors of *"Dar Al-Calipha*was considered as a declaration of the caliph's death and beginning of the preparation for his funeral and mourning ceremonies. After the announcement of the news publicly, statesmen get ready by wearing in white, the formal consolation dress, and then proceed to the *"Dar Al-Calipha "* to participate in the Abbasid family caliph or princes prayer and the funeral to the caliphs graves in *Al-Rasafa*. Later, theyreturn to the Ministry House and sit for three days to take the consolation, until the new caliph send statement to his minister and statesmen, to direct them to leave the consolation and undertaking business

KEYWORDS: Protocols, The mourning, consolation dress, the caliphs graves.

* Sultan Qaboos University, Oman.
Received on 21/9/2014 and accepted for publication on 22/1/2015.